الخطابة

بين الحرب والسياسة

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

تستند الخطابة إلى الإقناع والتأثير، فلها سبيلان العقل المقتنع والقلب المتأثر. وهي في كل أمة وعصر اتخذها الرومان في دور القضاء وساحات العدل دفاعا عن مظلوم، أو تبرئة لمتهم، أو إدانة لمسيء. واتخذها العرب في الجاهلية سجعاً لكاهن، أو عدة لواعظ، أو نصيحة لحكيم. كما فعل قس بن ساعدة الأيادي في خطبته المروية في كثير من كتب الأدب. تلك الخطبة التي ذكر الناس فيها بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والبحار ذات الأمواج. وكما فعل أكثم بن صيفي في خطبته التي اشتملت على الموعظة الحسنة والحكمة البالغة

واتخذها الإسلام في أول أمره نشراً للدعوة وتشجيعاً للجنود المقاتلة، وتأليفاً للقلوب، وتذكيراً للغافل، وتنبيهاً للخامل

وتروج سوق الخطابة في المنازعات والخصومات عند اختلاف الرأي وتنوع الفكر وتعدد المذاهب، كما حدث بين العلويين والأمويين والزبيريين والخوارج، وكما حدث في انجلترا بين المحافظين والأحرار، وكما حدث في أمريكا بين أهل الجنوب وأهل الشمال

ومن الطبيعي أن يظهر عند احتدام الفكر واصطراع الرأي قوتان متعارضتان تمثل كل منهما رأياً معيناً. وهنا يظهر الخطيب في جانب، ويبرز في الجانب المقابل من يبطل دعوته ويبطل حجته. ففي القرن التاسع عشر كان في انجلترا غلادستون زعيم الأحرار وخطيبهم الذي لا يجارى. وأمامه في الخصومة بيكونسفلد لسان المحافظين ومدرههم

ولا تجد الخطابة فرصة أكثر صلاحا لها وأحسن ملاءمة من الثورات العنيفة والتيارات القوية الشديدة. وقد تصنع الأقوال في خلال الثورات مالا تصنع الفعال. وأصدق شاهد على ذلك ثورة المجر في منتصف القرن التاسع عشر. فقد كلمت النمسا الأفواه وألجمت الألسن إلا لساناً واحداً تأبى على القيد وامتنع على المقاومة؛ هو لسان كوشوث الزعيم المجري؛ فرحل عن وطنه مجاهداً في سبيله بجنان فتى ولسان عضب قوي. فأكرمت انجلترا وفادته، كما أحسنت أمريكا ضيافته. فكان فيهما حر اللسان طلق البيان، حلو العبارة صريح الإشارة. وأقام متنقلاً بين الأمتين زماناً أسمع الشعوب الحرة خلاله صوت أمته المهضومة وبلاده المظلومة. ولم يطل على الأمة المجرية أمر الكفاح حتى استعادت قوتها واستردت حقوقها، وأصبحت شريكة في مملكة النمسا والمجر

وقد تساعد الثورات نفسها على تقدير خطباء لم يتح لهم من مواهب الخطابة ما يسمو بهم إلى مراتب التقدير. فهذا كرومويل زعيم الثورة الإنجليزية في عصر الملك تشارلس الأول ملك انجلترا. كرومويل هذا كان ثائراً أكثر منه خطيباً. إلا أن روح الثورة واتجاهها وعنفها جعلته من الخطابة في المحل الأول. وجعلت الشعب يجد في الاستماع إليه لذة وميلاً. مع أن كارليل الناقد المشهور يقول عنه في إحدى مقالاته: «إن خطب كرومويل لا تجري على أساليب صحيحة من البلاغة أو قواعد مرتبة من التفكير المنطقي. فهي تخالف كل أسلوب معروف في الخطابة إلا أنها أتيح لها من الشأن في حينها ما لا يقل شأناً عن خطب ديموستين في أثينا»

وقد تتمخض بعض الثورات العنيفة عن زعماء يؤثرون العمل على الكلام أو يفضلون النضال على القال وطعن السنان على وخز اللسان. والثورة الفرنسية أصدق دليل على ما نقول. فلقد كان من زعمائها دنتون وروبسبير ومارا الذين ضج الناس مما سفكوا من دم وأزهقوا من روح. وكانوا يعتمدون في الثورة على القتل أخذاً بالظنة ورمياً بالشبهة؛ حتى شك الناس في أخيرهم مارا ورموه بالتهم فدافع في إحدى خطبه عن نفسه. إلا أن ذلك لم يجد عليه فقتلته فتاة في الحمام وأراحت الناس من شره

ولقد قالوا إن الأمة العربية لم تنكب بخطيب مثل الحجاج ابن يوسف الثقفي في حبه لسفك الدماء وإذلال النفوس وإرادتها على القسر والإرغام، وفي شراسة الطبع وغلظ الكبد. وهذا كلام ينطبق على مارا في الأمة الفرنسية، وفرق ما بينهما أن الثقفي كان يرتكب جرائمه باسم الاستبداد، ومارا الفرنسي كان يرتكبها مع صاحبه باسم القانون

والخطيب السياسي يعتمد على الشجاعة والجرأة الأدبية في كل ما يصدر عنه، سواء أكان حاضاً على ثورة أم حاثاً على جهاد

أم مدافعاً عن رأى ، أو مبطلاً لبعض الرأى . ولقد تتحرج أمام الخطيب السياسى الساعات ويحزب الأمر فلا يزيده ذلك إلا شجاعة وجراءة وإليكم مثالين :

١ — وقف الحجاج على منبر الكوفة فقال: « والله لأحزمنكم حزم السلعة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل »

٢ — ووقف مارا الفرنسى يدفع عن نفسه بعض التهم التى جزاؤها الإعدام فقال في شجاعة نادرة لهيئة القضاة التى تحاكمه : « لقد كان هذا رأيى يعرفه من اتصل بى أو قرأ لى ، ولقد كنت أصدر الآراء مشفوعة بتوقيعى ، مصحوبة باقرارى . وما أنا ممن يخشون الجهر بآرائهم . وإذا كنتم أنتم لا تفهمون ذلك ولا تعرفونه هى فتياً لكم وسحقاً »

وإذا اقترنت شجاعة الخطيب الأدبية بحسن القريحة وسرعة البديهة وحلاوة النادرة كان ذلك أوقع فى نفوس السامعين وأشد تأثيراً فيهم . وللمستر لويد جورج الخطيب الإنجليزى المشهور فى ذلك الميدان مجال أى مجال

حدثوا أنه كان يخطب مرة فى الحكم الذاتى فقال : سنعطى الحكم الذاتى لكندا وسنعطيه لإيرلندا وسنعطيه لـ ... ولم يكد يكملها حتى قال رجل من السامعين ... لجهنم فرد عليه لويد جورج قائلاً : هو ذاك . يعجبنى أن يتذكر كل إنسان وطنه

وقد يكون فى بعض السامعين للخطباء من يغمزهم بكلام أو يتعرض لهم بملام . وهنا تظهر مقدرة الخطيب على سرعة الرد وحسن الدفاع ومواتاة الجواب . فقد حدثوا أنه وفد جماعة من العرب على كسرى وفيهم من السادة الخطباء من انتهى إليه الشرف وبلغ السيادة فى قومه والمنزلة فى قبيلته . وأخذ كل منهم يتكلم بما يعرف لأبانة ما للعرب من فضيلة . حتى انتهى الدور إلى الحارث بن ظالم فأجاد الكلام وأحسن الدفاع . فقال له كسرى : من أنت ؟ قال : أنا الحارث بن ظالم . قال كسرى : إن فى أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر وأقرب من الوزر ! قال الحارث : إن فى الحق مغضبة ، والسرو التثاقل . ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة . فلتشبه أفعالك مجلسك

وخطب الوفود هذه من الخطب السياسية التى لا يغفل شأنها . وقديماً استعملها النعمان بن المنذر ليدفع عن العرب ما رماهم به كسرى وما تجنى عليهم ، وليعلمه أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه . فاختار جماعة من خيارهم فيهم أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد وقيس بن مسعود والحارث ابن ظالم . فتكلموا ودفعوا عن مآثر صالحات ، وحموا عن نسب صحيح

وكان الروم والهند والصين يفدون على كسرى وفيهم الخطباء المصاقع فيذكرون من بلادهم ما يدخل اليوم فى باب الدعاية السياسية . ولا شك أن هؤلاء الرسل كانوا يختارون من أحسن الناس كلاماً وإلا ضاعت الحكمة من إيفادهم وذهبت المزية من اختيارهم

والخطابة تروج فى زمن الحروب وتصادف من الآذان سمعاً واستجابة . وسيسجل تاريخ الحرب الحالية أسماء نفوة من الخطباء من أنصار الديمقراطية ومن أعدائها . وكم يكون الأدب سعيداً لو أن هؤلاء الخطباء أنجبتهم ظلال السلامة ومنابت الأمن والطمأنينة . ألا إن الدفاع عن الحرية يتطلب دائماً ثمناً غالياً .

وقد يكون القائد المحارب نفسه خطيباً مفوهاً ومتكلماً فصيحاً ؛ فيمسك قائم سيفه بيده ولسانه بفمه يحض الجنود على القتال ويشجعهم على المصابرة كما فعل خالد بن الوليد فى معركة أجنادين بين الروم والعرب حين قال فيما قال : (اقرنوا الناكب ، وقدموا الضارب ، ولا تحملوا حتى أمركم بالحملة ، ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من القسى كأنها تخرج من كبد قوس واحدة . فإنه إذا تلاحقت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب)

أو كما فعل طارق بن زياد حين عبر المدوة من الأندلس وبلغه دنو (الذريق) فخطب خطبته المشهورة التى أولها (أيها الناس ! أين الفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر)

ومن الخطب السياسية خطب الفتوح وتلقى عادة عند إتمام فتح أو إكمال غزو . والغرض منها بالطبع الدعوة للفاتح الجديد وتهنئته وإدخال الناس فى طاعته . وضمهم إلى حوزته . وأشهر الخطب من ذلك النوع خطبة القاضى محيى الدين بن على المعروف بابن الزكى التى ألقاها فى مسجد القدس مهنئاً صلاح الدين بأخذ بيت القدس من الصليبيين . وهى خطبة تاريخية طويلة تمتاز بقوة عبارتها ألا إن السجع يفشو فيها جريا على طريقة عصرهم وأسلوب زمانهم .